الدين والعلماء

للأستاذ السيد محمد عبد الشافعي

اقتضت حكمة الحق سبحانه وتعالى أن يجعل للإنسان ظاهراً وباطنا . ظاهر الإنسان الجسد ، وباطن الإنسان الروح ، وكما لا قوام للجسد إلا بالروح فكذلك لا ظهور للروح إلا بالجسد . ولكى يكون الإنسان على هذه الشاكلة التى أوجده الله عليها لابد له من الأمرين معا ، جسد من عالم الخلق ، وروح من عالم الأمر — فيقابل بجسده الحسى ما خلق من أجله فى عالم الحس . ويقابل بروحه ما خلق من أجله فى عالم الأمر حيث كان هو العلة الغائية من الإيجاد . كل شىء فى الوجود خلق من أجله وهو وحده خلق لله — قال تعالى : (خلق لكم ما فى الأرض جميعا) ، (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) وقال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وإيجاد المرء على هذه الشاكلة ولهذه الغاية اقتضى أن يكون للمرء اتصال وثيق بالأكوان ، كما أنه اقتضى أن يكون له اتصال وثيق بربه ، ومن ثم كان لابد من شرح ينظم للمرء صلاته بما سوى الحق . كما ينظم صلاته الوثيقة بخالقه وحتى لا يعمل كل بهواه . فيفسد الكون ولم تتحقق الغاية من الإيجاد ، لهذا كله — تفضل الحق تبارك وتعالى فأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة فشرع فى الأحكام المتعلقة بأعمال الجوارح الظاهرة ما تنتظم به صلة المرء بنفسه وصلته بأهله وصلته بعشيرته وقومه . بل وصلته بكل ما خلق من أجله وجعل كل هذه الأحكام وهذه الحدود تندرج تحت حيطة مقام الإسلام ، كما شرع لنا من الأحكام المتعلقة بأعمال الجوارح الباطنة ما يتزكى به المرء فى نفسه وتنتظم به صلته بربه وكلها تندرج تحت حيطة مقام الإيمان والإحسان .

ولما أن كان علم الشريعة فى الواقع رواية ودراية . اختص المحدثون بالرواية كما اختص الفقهاء والحكماء بالدراية . أما الفقهاء فاختصوا بأعمال الجوارح الظاهرة كالعبادات مثل الطهارة بنوعيها ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، وكالأحكام مثل الحدود . والبيوع . والفرائض . والطلاق . والعتاق . والقصاص . وما شابه ذلك وتعلق بأعمال الجوارح الظاهرة ولأن هذا النوع من العلم يتعلق بأحكام

الأعمال الظاهرة فى الإنسان أطلق عليه علم الظاهر كما أطلق على السادة الفقهاء الذين تخصصوا فيه علماء الظاهر .

أما الصوفية الحكماء فاختصوا بأعمال القلوب مثل التخلية والتحلية . التخلية عن كل خلق مذموم كالحسد والكبر والغل والغرور والرياء والنفاق .

والغل حيث نهانا الحق تبارك وتعالى عن ذلك كله بقوله : (اجتنبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) وهذه الأخلاق المذمومة هى فى الواقع الفواحش الباطنة فى القلب وهى علل القلوب المهلكة للإنسان والعياذ بالله . ثم هم اختصوا كذلك رضوان الله عليهم بالتزكية والتحلية بكل خلق محمود ، والتحقق بمقامات الإيمان والإحسان . كالإيمان والتوبة والصبر والرضا والشكر والتوكل والخوف والرجاء والإنابة والخشوع والمراقبة والمحاسبة وصفاء النية والإخلاص فى العمل والزهد والمحبة والأنس والشوق وغير ذلك مما جعل الله به أولياءه وذكره فى كتابه وجعله شرطا لازما فى فلاح العبد فى دنياه وآخرته كما قال تعالى : (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

ولأن هذا النوع من العلم يتعلق بأعمال الجوارح الباطنة أطلق عليه علم الباطن وعلم الحقيقة حيث أن باطن الشىء حقيقته — كما أطلق على السادة الذين تخصصوا فيه علماء الحقيقة أو أهل التصوف — علما بأن الباطن هو باطن الظاهر الذى لا يكون إلا به كما أن الظاهر هو ظاهر الباطن الذى لا يكون إلا به — والشريعة من حيث هى واحدة لها الباطن ولها الظاهر فإن كان من الشريعة أن تراعى حدود الله فى الأعمال الظاهرة . فمن الشريعة أن تراعى حدود الله فى الأعمال الباطنة — والفقه فى دين الله يشمل الأمرين معا .

ومن ثم نرى أن طبيعة دين الله تستلزم أن ينقسم أهل الفقه فيه إلى قسمين — فقهاءهم أهل العلم الظاهر حيث تخصصوا فى أعمال الجوارح ، وصوفية أو حكماء وهم أهل العلم الباطن حيث تخصصوا فى أعمال القلوب فمن قال لا علم إلا علم الشريعة قاصداً علم الأحكام المتعلقة بالجوارح فقد أنكر من الدين ما لا يصلح الدين إلا به . ومن قال لا علم إلا علم الباطن قاصداً علم الأحكام المتعلقة بالقلوب فقد أنكر كذلك من الدين ما لا يصلح الدين إلا به إذ أن كلا منهما فى الواقع متمم للاخر وإن كانت العبرة إنما هى فى الواقع بأعمال القلوب كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى ما فى قلوبكم » ويقول صلوات الله

عليه : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله . وإذا فسدت فسد الجسد كله ألاوهى القلب » وقوله صلوات الله عليه : « العلم علمان علم على اللسان وذلك حجة الله على عبده وعلم فى القلب وذلك العلم النافع » بل ويقول الله جل وعلا : (يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » ومتى كانت نجاة المرء يوم القيامة متوقفة على هذا النوع من العلم والعمل به كانت العناية به فى الحقيقة أوجب . فالمحدثون وفقهاء الأحكام والصوفية حكماء القلوب درجات عند ربهم . فإن كان للمحدثين وفقهاء الأحكام الفقه فى مقام الإسلام فللصوفية حكماء القلوب الفقه فى مقام الإيمان والإحسان وكلا وعد الله الحسنى ويرفع الله الذين أوتوا العلم درجات ، ومتى كان للدين مراتب ثلاثة : إسلام . وإيمان . وإحسان . كما بين ذلك صلى الله عليه وسلم . وقد تخصصت السادة الفقهاء فى العمل بأحكام الإسلام ، كما تخصص الصوفية فى مقام الايمان والإحسان ودين الله لاشك واحد فالاشتراك فى الأصل يقضى بالاشتراك فى الحكم والفقه والتصوف . هذه مكانتهما من دين الله فهما شقيقان فى الدلالة على أحكام الله وحقوقه فلهما حكم الأصل الواحد فى الكمال وفى النقص . وليس أحدهما فى الواقع بأولى من الآخر فى مدلوله فأظنه ليس هناك مجال لمنصف فى إقرار الفقه وجحود التصوف علما بأن التصوف أشرف لشرف متعلقه .

وهذه الطوائف الثلاثة وإن تفاوتت درجاتهم واختلفت مشاربهم ومناهجهم . هم حملة الرسالة من بعد الرسل . وهم أمناء الله على دينه . كما أنهم شهداء الله على خلقه. ليس ثمة خلاف بينهم ولم يفرقوا دينهم شيعا بينهم كما يفهم البعض وإنما كان اختلاف مشاربهم ومناهجهم أمر اقتضاه دين الله فى ذاته حيث أن ظاهر الدين إسلام وباطن الدين بالنسبة للفرد إيمان وإحسان ويريد الله أن يحفظ دينه فاختار قوم لمقام الاسلام واختار قوم لمقام الايمان والاحسان ، كما اختار رجال الحديث نضر الله وجوههم لابلاغ الأمة ميراث الرسول صلى الله عليه وسلم . فتخصيص كل طائفة منهم بخدمة وجه من وجوه الدين أمر اقتضته طبيعة الدين ومراتبه وليس هو فى الحقيقة خلاف مادام الهدف واحدا والغاية واحدة .